مؤتمر الدار البيضاء بين المثقفين العرب والأمركيين (الدين في الحياة العامة)

رضوان السيد *

بين (7و11 نوفمبر 2005م), التقى بالدار البيضاء زُهاء العشرين مثقَّفاً وأستاذاً عربياً وأميركياً في متابعةٍ للقاء بمالطا العامَ الماضي. وقد جاءت فكرةُ لقاء ملطا بعد أن كان ستون مثقَّفاً أميركياً ينضوون في "معهد القيم الأميركية" بنيويورك، قد أصدروا بتاريخ (12 فبراير 2002م) بياناً في صيغة رسالةٍ إلى المثقفين العرب والمسلمين، يدعونهم فيه للمشاركة في الحرب على التطرف الإسلامي العنيف. وقد نُشر البيانُ وقتها في صحيفة "الحياة" وصُحُفٍ عربيةٍ وأخرى، وأحدث ردودَ فعلٍ واسعةٍ من جانب المثقفين العرب، قامت بجمعها ونشْرها مجلة "الاجتهاد" في صيفِ (عام 2002م). وما أمكن التلاقي لتبادُل الآراء، لأنّ إدارة بوش كانت على وشْك شنِّ حربها على العراق. ولذلك تُأخَّرَ الاجتماعُ بين الطرفين حتى خريف (عام 2003م) وبمالطا، حيث استمر النقاشُ ثلاثة أيامٍ بين زُهاء الـ 24 مثقَّفاً من الطرفين، وتراوحت موضوعاتُ الحديث بين "الحرب العادلة" والقضايا العربية العالقة والمشتعلة مع الولايات المتحدة وعلى رأسها قضية فلسطين، وقضية العراق. يومَها جرى الاتِّفاق على عقد لقاءٍ آخَر، يكونُ موضوعُهُ: "الدينُ في المجال العامّ في التجربتين الأميركية والعربية".

انقسمت المحاضرات إلى ثلاثة أقسام. في اليوم الأول أُلقيت محاضرتان في مسائل المشروعية، والعلاقة بين الديني والسياسي في المسيحية والإسلام. وفي القسم الثاني جرت وفي أربع محاضرات مناقشة الموضوعات المقارنة للتجربتين في الولايات المتحدة وبلدان العالم العربي في عصر الدولة الوطنية- في حين انصبّت محاضرات اليوم الثالث على موضوعاتٍ تتصل بالتمايُزات بين التجربتين في منظورٍ مقارنٍ مثل الحرية الدينية وحقوق الإنسان والتعددية والحركات الإحيائية في البروتستانتية والإسلام، ومسائل الدين والعُنْف.

في اليوم الأول ناقشت المحاضرتان (من جانب أميركيةٍ وعربي) التشابُهات والاختلافات في العقيدة والتاريخ بين الديني والسياسي. وفي حين أصرَّت جين ألشتاين (أستاذ الفلسفة السياسية بجامعة- شيكاغو) على اختلاف التجربتين، بسبب الاختلاف العقدي، ذهب سعيد بِنسعيد العلوي إلى وجود مصدرين للمشروعية في الإسلام: المشروعية الدينية والأخرى العُرفية أو الناجمة عن الإجماع. وقد نوقشتْ النتائج التي توصل إليها البِاحثان من جانب الحاضرين استناداً إلى النصوص تارةً، وإلى التجربة التاريخية تارةً أخرى. بيد أنّ البارز في الاعتراضات كان التجربة التاريخية. فبخلاف

ظواهر النصّ الإنجيلي، ارتبط الدين بالدولة حتى بما يتجاوزُ مسألة المشروعية في التجربة التاريخية المسيحية. وبخلاف ظواهر النصوص الإسلامية، كان هناك تمايُزٌ بين المجالين الديني والسياسي في الإسلام الوسيط. ثم كان هناك مَنْ قال إنّ النص والتجربة كليهما، له نتائجُ وسياقاتٌ مُعاصرةٌ تختلف اختلافاً شديداً عن الأمرين في العصور الوسطى.

وقرأَ كلٌّ من رضوان السيد (من الجامعة اللبنانية) وهبمس تيرنر جونسون (من جامعة روتجرز، الفلسفة والسياسات العامة) التجربة الحديثة والمعاصرة بين الدين والدولة (في الوطن العربي، رضوان السيد)، وفي تاريخ الولايات المتحدة (جونسُون). ذهب جونسون، المعروف بكتابه الرائد عن أطروحة "الحرب العادلة" أواخر السبعينات، إلى أنّ التجربة البشوشة أو الانسجامية بين القُطبين متفردةٌ في أميركا، وهي تختلفُ اختلافاً شديداً عن التجربة الأوروبية. إذ إنها تعتبر الدينيَّ جزءًا من المدني، ولا تفرُّق بينهما إلاّ من الناحية التنظيمية. والمقصودُ بالناحية التنظيمية مسألة المواطنة، التي تُسّوي بين الناس في الحقوق والواجبات، والتي يمكن القولِ إنها حتى في هذه الناحية تستفيد من الروح العامّ للدين المسيحي. ولا ينبغي أن يصرِفنا الثوران الديني الإنجيلي اليومَ عن الدورِ التقدمي للدين في حركة الحقوق المدنية مَثلاً. وقد غضب جونسون عندما حصل نقاشٌ اعتبره خَلْطاً بين السكون واللاييك. فلا مشكلة بين الدين والسكولارية، إنما المشكلة في العقل الأوروبي بين الدين واللائيكية. أما أنا فقد قدَّمْتُ لمحاضرتي باستظهار سوء العلاقة بين الدين والدولة في الوطن العربي منذ قيام الدولة الوطنية. وقد تطورت الأمور إلى انفجار الصراع فيما بين الخمسينات والسبعينات من القرن العشرين. ولأنَّ الصراع في الحقيقة ليس بين الدين والدولة؛ بل بين الأنظمة السياسية والأصوليات؛ فقد درستُ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تراجُع المؤسسة الدينية التقليدية إلى حدود الانهيار في بعض الدول، والاستتباع الكامل في دولٍ أخرى.

والأمر الثاني: النظام السياسي العربي وبلوغه درجة الأزمة في العقدين الأخيرين للحرب الباردة.

والأمر الثالث: صعود الأصولية الإسلامية، واصطدامها بالمؤسسة الدينية ثم بالأنظمة السياسية في ذروة الحرب الباردة أيضاً. ثم تقدمت باقتراحاتٍ لإعادة ضبط العلاقة وتنظيمها استناداً إلى التشخيص الذي قدمتُهُ لأسبابها ونتائجها.

وتحدث عبد العزيز القاسم (محامٍ وباحث من السعودية) عن الدين والدولة في المملكة العربية السعودية، فقسّمها إلى ثلاث مراحل: مرحلة قيام الدولة وثنائية الشيخ/الأمير. ومرحلة الدولة الثانية بعد الغزو المصري، ثم المرحلة الثالثة منذ مطلع القرن العشرين وحتى اليوم. وقد ركّز الأستاذ الباحث على هذه المرحلة بعد تحديد معالمها الأساسية فيما قبل الحرب الثانية وما بعدها، وحتى التسعينات من القرن الماضي. وفي حين انصبّ اهتمامُ المشاركين الأميركيين على مسائل الإصلاح الديني والتعليمي في المملكة، ناقش

مشاركون عرب المحاضر في طرائق تحول الثنائية الأولى إلى استتباع، وتأثيرات ذلك على قوتي كلٍ من الدولة والمؤسسة الدينية. وأراد أحدُ المشاركين معرفة رأي المحاضر السعودي في تأثيرات الأصولية السلفية على الشرعية، وهل صحيحٌ أنّ المؤسَّسة الدينية ما تزال عاملاً رئيسياً في المشروعية، رغم متغيرات الدولة والعالم المعاصر.

ودرس عبد الرحمن السالمي (من سلطنة عُمان، رئيس تحرير مجلة التسامح) التجربة المعاصرة في التعليم الديني بعُمان واليمن؛ من منظور العلاقة بالدولة، وتأثيرات السياقات في المجالين على التطورات الجارية في السنوات الأخيرة: الانتظام والانسجام من جهة، ومشكلات الراديكالية والثوران من جهةٍ ثانية. ورأى أنّ قوة الدولة (الناجمة عن شرعيتها في عيون الجمهور) هي العامل الحاسمُ في انتظام العلاقة أو إشكاليتها؛ إضافة إلى تأثيرات التجربة التاريخية وفروقاتها، والاتجاهات العصرية في البرامج التعليمية.

وحاضر حسن منيمنة (الكاتب المقيم بالولايات المتحدة، من أصلٍ لبناني) عن مسألة الدين والدولة بالعراق في الأزمنة الحديثة؛ فجاءت محاضرته استعراضاً مركّزاً لمكوِّنات المجتمع العراقي، والدولة العراقية التي قامت (عام 1920م)؛ وصولاً لتشخيص التجربة الحاضرة بعد الاحتلال الأميركي للعراق. وقد أفاض الكاتب في الحديث عن المؤسسة الدينية الشيعية بالعراق اليوم، ودورها السياسي الكبير، والإمكانيات المستقبلية لهذا الدور مقارنة مع التجربة الإيرانية.

وتحدث عبده الفيلالي الأنصاري (المثقف المغربي المعروف، ومدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة الآغاخان، بلندن) عن الحرية الدينية في الإسلام، كما تتجلّى في كتابات المسلمين المُحْدَثين والمعاصرين. وقد نبَّه إلى أهمية التجربة التاريخية، ملاحظاً جدّية قراءة علي عبد الرازق (في كتابه: الإسلام وأصول الحكم)، ورؤيتها المختلفة للسائد في الوعي الإسلامي الحديث على الخصوص.

وتحدث المعروف مايكل نوفاك (من أمريكان أنتربرايز) عن الحرية الدينية باعتبارها مطلباً عالمياً وجزءًا من حقوق الإنسانٍ وقد ذهب إلى أنّ مسألة الحرية أصيلةٌ في المسيحية، لكنها صارت الآن مطلباً وحاجة في سائر ثقافات العالم. ولأنّ الباحث كانت له في كتابه: الجوع العالمي إلى الحرية (2004م) ملاحظات على النصوص والتجربة الإسلامية بهذا الخصوص، فقد ناقشه عربٌ وأميركيون مشاركون في هذه المسألة، وفي التمييز الانتقائي بين الديانات والثقافات وقد ردَّ الكاتب بأنه ليس تأصيلياً، ويعترف بأنّ شواهده من العالم المعاصر، وليس من النصوص الإسلامية. واختلف معه أيضاً غالستون (الأستاذ بجامعة ماريلاند) الذي رأى في تجربة علاقة الدين بالدولة في الولايات المتحدة. مشكلاتٍ كبرى أيضاً، والشواهد من الثوران الديني الحالي (الإنجيليين الجدد) كثيرةٌ وواضحة.

لم يكن انعقاد اللقاءُ الأميركي/ العربي الثاني بالدار البيضاء بالدرجة الأولى من أجل قراءةٍ أكاديميةٍ مقارنةٍ في العلاقة بين الدين والدولة في التجربتين الأميركية والعربية؛ بل

كان الهدف الأول استمرار التواصل من أجل بلوغ مشتركاتٍ، والإسهام في تصحيح العلاقات. بيد أنّ اختيار موضوع الدين والحياة العامة في التجربتين، له دلالاته. فقد استظهر الطرفان في لقاء مالطا ومن قبل وجود اختلالٍ في علاقة الدين بالدولة في المجال العربي الإسلامي، والثوران الأصولي العربي العنيف الذي وصل شررُهُ إلى الولايات المتحدة في (11 سبتمبر عام 2001م) شاهدٌ فاقعٌ على ذلك. ولهذا ففي حين غلبت على الرؤى العربية في اللقاء النزعة النقدية والدعوة للإصلاح الديني والسياسي لتجاوُز الأزمة؛ نظر الأميركيون (باستثناءٍ وينفو الكاميروني الأصل، وغالستون الليبرالي المنزع) إلى تجربتهم باعتبارها مثالية أو نموذجية. وقد قاد ذلك بعض العرب المشاركين (حسن منيمنة، وعبد العزيز القاسم) إلى اتهامهم بالدَعَوية والنزوع التبشيري، شأن تبشيرتهم الديمقراطية المليئة بالثقوب والمشكلات). لقد ذهب كلٌ من نوفاك وجونسون وألشتاين (وإلى حدٍ ما كلساي) إلى أنّ العلمانية العنيفة في التجربة الأوروبية كان المقصود بها حماية الدولة من الدين؛ في حين هدفت التجربة الأميركية إلى دمج الخاصّ والعامّ في الإنسان، واعتبار الخاصّ الديني شأناً مدنياً حراً، يتحولُ الدستورُ دون العدوان عليه أو استتباعه من جانب الدولة؛ مع إمكان الإفادة منه في مجال القيم الكبرى التي تحكم الحياة العامة أيضاً أو تؤثر فيها تأثيراً كبيراً.

ولستُ من أنصار التقليد الأعمى لأيٍ من التجارب الدينية أو السياسية العالمية؛ لكنّ التجربة القارَّية الأوروبية تجربةٌ صراعيةٌ مع الدولة؛ في حين ساد نوعٌ من الهدوء والتفاعل السلمي في المجال الأنجلوسكسوني/ الأميركي، بحيث يمكنُ النظرُ في الإفادة من قراءته ودرْسه دونما اختزال ولا تقديسٍ أو رفضٍ مسبَق؛ وبخاصةٍ أننا نُعاني منذ عقود من اضطراب العلاقة بين الدولة والأصوليات في منطقتنا، بسبب الصراع على السلطة، والروحية والسياسات التي سادت في الحرب الباردة.

وقد انصرف الباحثون العرب والأميركيون في جلسة المؤتمر الأخيرة لمناقشة وضع العلاقة بين أميركا والعرب في العامين (2004م و2005م)، ودلالات المأزق الأميركي بالعراق. ثم ناقشوا تجربتي اللقاء، ووسائل وأدوات التطوير والتدبير وفتح الآفاق، فثبتت فكرة إصدار مجلةٍ للحوار والعلاقات، بالإنجليزية والعربية، واستمرار الزيارات المتبادلة واللقاءات، واقترحتُ أن يكونَ موضوع اللقاء الثالث: الولايات المتحدة والعرب: رؤى متبادَلة.